الملكة حاتشبسوت

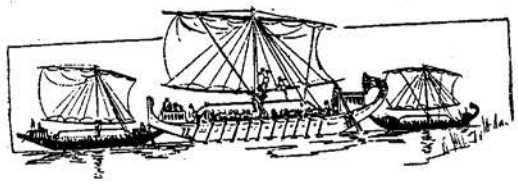

مُنْذُ خَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ قَرْنًا اعْتَلَتْ حَاتْشِبْسُوتُ عَرْشَ مِصْرَ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَلِكَةٍ تَوَلَّتْ الْحُكْمَ، بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَى الْبِلَادِ مِئَاتُ السِّنِينَ ، وَهِيَ تَحْتَ حُكْمِ سِلْسِلَةٍ من ملوكِ الْفَرَاعِنَةِ .

وَكَانَ أَبوهَا الْمَلِكُ تُحُوتْمُس الأَوَّلُ من أَشَدِّ الْفَرَاعِنَةِ بَأْسًا، وَأَعْظَمِهِمْ شَأْنًا، فَلَمَّا بَلَغَتْ حَاتْشِبْسُوتُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ من عُمْرِهَا ، أَبْلَغَهَا وَالِدُهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ يوماً مَلِكَةً عَلَى مِصْرَ . وَلَكِنَّهَا لَمْ تُصَدِّقْ أُذُنَيْهَا ، وَظَلَّتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُدَاعِبُهَا ، لأَنَّهَا لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ امْرَأَةً حَكَمَتِ الْبِلَادَ مِنْ قَبْلُ ، إِلَى أَنْ جَاءَهَا وَالِدُهَا ذَاتَ يَوْمٍ ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَرْتَدِيَ أَفْخَرَ الثِّيَابِ ، ثُمَّ سَارَ بِهَا إِلَى قَاعَةِ الْعَرْشِ ، حَيْثُ كَانَ فى انْتِظَارِهِمَا جَمِيعُ أُمَرَاءِ البلادِ ونُبَلَائِهَا وأَشْرَافِهَا . وحِينَئِذٍ شَعَرَتْ بِجَلِيلِ شَأْنِهَا ، وعَظِيمِ قَدْرِهَا ، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا عَالِيًا وَسَارَتْ بِجِوَارِ وَالِدِهَا فى عَظَمَةٍ وَكِبْرِيَاءٍ .

واسْتَوَى تُحُوتْمُسُ عَلَى الْعَرْشِ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا عُظَمَاءَ الْبِلَادِ ، يَا أُمَرَاءَ مِصْرَ ونُبَلَاءَهَا وأَشْرَافَهَا، أُقَدِّمُ لَكُمُ الْيَوْمَ مَلِكَتَكُمُ الْقَادِمَةَ . لَقَدْ قَرَّرْنَا أَنْ تُصْبِحَ ابْنَتِي حَاتْشِبْسُوتُ مَلِكَةَ وَادِي النِّيلِ بعدَ انْتِهَاءِ حُكْمِي . ونُرِيدُ منكم أَنْ تُقْسِمُوا بَيْنَ يَدَيْنَا يَمِينَ الْوَلَاءِ والإِخْلَاصِ لَهَا» . فَانْحَنَى الْحَاضِرُونَ إِجْلَالاً واحْتِرَامًا ، ثُمَّ أَقْسَمُوا عَلَى طَاعَةِ حَاتْشِبْسُوتَ والذَّوْدِ عَنْ عَرْشِهَا .

وخُصِّصَ لها مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ قَصْرٌ فَخْمٌ فى طِيبَةَ (الأَقْصُرِ) ، طُلِيَتْ جُدْرَانُهُ الْعَالِيَةُ بِأَلْوَانٍ زاهيةٍ جميلةٍ ، وزُيِّنَتْ حُجُرَاتُهُ الفسيحةُ بالأَزْهَارِ والرَّيَاحِينِ وَوُضِعَتْ فى أَرْجَائِهِ قُدُورٌ مَكْشُوفَةٌ مَلْأَى بالرَّوَائِحِ الْعِطْرِيَّةِ . واعْتَادَتْ حَاتْشِبْسُوتُ أَنْ تَسْتَحِمَّ كُلَّ يَوْمٍ فى بِرْكَةِ مَاءٍ مُعَطَّرٍ فى فِنَاءِ قَصْرِهَا ، وكَانَتْ — بَعْدَ أَنْ تُدَلِّكَ جِسْمَهَا بالْعُطُورِ — تَرْتَدِي ثَوْبًا مِنَ النِّيلِ نَاصِعِ الْبَيَاضِ ، يَنْتَهِي عِنْدَ الرَّقَبَةِ بِطَوْقٍ عريضٍ من الْخَرَزِ الأَزْرَقِ والأَخْضَرِ الزَّاهِي ، له أَهْدَابٌ من الذَّهَبِ الْخَالِصِ على شَكْلِ زَهْرَةِ اللُّوتَسِ ، وتَنْتَعِلُ حِذَاءً من الْجِلْدِ الْمُلَوَّنِ ، ثُمَّ تَسِيرُ فِي أَنْحَاءِ حديقةِ قَصْرِهَا الْوَاسِعَةِ ، حَيْثُ تَسْتَمْتِعُ ساعاتٍ طِوَالاً بِجَمَالِ الأَشْجَارِ الْيَانِعَةِ والأَزهارِ البديعةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْرِفُ اسْمَ كُلِّ

وَاحِدَةٍ مِنْهَا .

وَكَانَتْ إِذَا نَظَرَتْ مِنْ خِلَالِ سُورِ حَدِيقَتِهَا رَأَتْ جُدْرَانَ مَعْبَدِ آمُونَ الْعَظِيمِ ، فَتَذْكُرُ أَيَّامَ أَنْ كَانَتْ صَغِيرَةً ، حِينَمَا كَانَتْ تَحْمِلُ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْبَدِ طَاقَاتٍ كَبِيرَةً مِنَ الأَزْهَارِ فِى أَوَانٍ من الذَّهَبِ الْخَالِصِ ، وَتُطْلِقُ الْبُخُورَ ، فَيَتَصَاعَدُ دُخَانُهُ ذَكِيَّ الرَّائِحَةِ ، وَيَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِلَ — بِحَسَبِ اعْتِقَادِهَا — إِلَى الإِلٰهِ فِى السَّمَاءِ .

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ وَمَاتَ الْمَلِكُ تُحُوتْمُسُ ، وَكَانَتْ حَاتْشِبْسُوتُ قَدْ بَلَغَتْ أَشُدَّهَا ، فَقَامَتْ بِتَنْفِيذِ وَصِيَّةِ أَبِيهَا ، فَتَزَيَّتْ بِزِيِّ الرِّجَالِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِم ، وَنَادَتْ بِنَفْسِهَا مَلِكَةً عَلَى مِصْرَ ، وَطَالَبَتِ الأُمَرَاءَ وَالنُّبَلاَءَ وَالأَشْرَافَ بِاحْتِرَامِ قَسَمِهِمُ الَّذِى أَقْسَمُوهُ عَلَى طَاعَتِهَا وَحِمَايَتِهَا ، فَخَضَعَ الْجَمِيعُ لَهَا . وَلٰكِنَّهَا ، مع مَا كَانَ يُحِيطُ بِهَا من أُبَّهَةِ الْمُلْكِ وَعَظَمَتِهِ ، كَانَتْ تُحِبُّ حَدِيقَتَهَا الْجَمِيلَةَ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَغْلَى الْجَوَاهِرِ .

خضع الامراء والشعب لها

فَأَمَرَتِ الْكَهَنَةَ فِى جَمِيعِ الْمَعَابِدِ بِالدُّعَاءِ إِلَى الإِلٰهِ أَنْ يُدِيمَ لِلْبِلاَدِ الأَمْطَارَ السَّخِيَّةَ وَالشَّمْسَ السَّاطِعَةَ وَالنَّسِيمَ الْعَلِيلَ ، حَتَّى تَنْمُوَ الأَشْجَارُ وَتَتَفَتَّحَ الأَزْهَارُ .

وَكَانَتِ الْمَلِكَةُ فَوْقَ هٰذَا تُحِبُّ آلِهَةَ بِلاَدِهَا من صَمِيمِ قَلْبِهَا ، وَعَلَى الأَخَصِّ الإِلٰهَ آمُونَ ، فَكَانَتْ تَأْخُذُ إِلَى مَعْبَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ أَجْمَلَ طَاقَاتِ الأَزْهَارِ . وَلٰكِنَّهَا كَانَتْ تَرَى أَنَّ الأَزْهَارَ مهما كَانَتْ جَمِيلَةً عِنْدَ قَطْفِهَا فَإِنَّهَا تَذْبُلُ بَعْدَ ذٰلِكَ فِى الْمَعْبَدِ وَتَجِفُّ . فَأَصْدَرَتْ أَمْرَهَا بِإِنْشَاءِ حَدِيقَةٍ غَنَّاءَ حَوْلَ مَعْبَدِ آمُونَ ، تَكُونُ أَجْمَلَ حَدَائِقِ الْبِلاَدِ ، وَأَشْجَارُهَا دَائِمَةَ الْخُضْرَةِ ، ذَكِيَّةَ الرَّائِحَةِ ، وَتَشْمَلُ شَجَرَ الْمُرِّ ذِى الرَّائِحَةِ الْعِطْرِيَّةِ ، وَشَجَرَ الأَرْزِ لِتَسْتَظِلَّ تَحْتَهُ أَزْوَاجُ الطَّاوُسِ .

وَانْتَشَرَ الْخَبَرُ فِى أَنْحَاءِ الْبِلاَدِ ، وَتَسَاءَلَ النَّاسُ : « مِنْ أَيْنَ تَأْتِى الْمَلِكَةُ بِأَشْجَارِ الْمُرِّ وَالأَرْزِ ، وَهِىَ غَيْرُ موجودةٍ فِى البلادِ المصريَّةِ ، بل لا تُوجَدُ الَّا فى بِلاَدِ الْبُونْتِ الْبَعِيدَةِ (بُونْت هو الاسْمُ القديمُ لبلادِ

الْحَبَشَةِ والصُّومالِ ، كَمَا فى الْخَرِيطَةِ) حَيْثُ تُوجَدُ أَيْضاً أَشْجَارُ الْابَنُوسِ الأَسْودِ الثَّمِينِ ، وأَشْجَارُ الصَّنْدَلِ الَّذِى يُسْتَعْمَلُ فى الْبَخُورِ ، وأَشْجَارُ القِرْفَةِ اللَّذِيذَةِ الرائحةِ والطَّعْمِ .

وصَمَّمَتِ الملكةُ على تَنْفِيذِ رَغْبَتِهَا مَهْمَا صَادَفَهَا مِنَ الصِّعَابِ ، فَأَمَرَتْ بِإِعْدَادِ خَمْسٍ مِنْ أَفْخَرِ سُفُنِهَا ، وحَمَّلَتْهَا أَثْمَنَ الهدَايَا لِمَلِكِ الْبُونْتِ . وفى أَحَدِ الأَيَّامِ ، هرَعَ الناسُ أَفْوَاجاً إِلَى شاطئِ النِّيلِ عِنْدَ طِيبَةَ ، واصْطَفُّوا يُشَاهِدُونَ السُّفُنَ الْفَخْمَةَ ، وقد وَقَفَ البَحَّارَةُ يَنْشُرُونَ أَشْرِعَتَهَا ، والكُلُّ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هؤُلَاءِ البحارةَ هالكونَ لا محالةَ ، إِذْ لَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ عَلَى القِيَامِ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ ، فَالطَّرِيقُ وعْرٌ ، والبحرُ خَطِرٌ ، وبِلَادُ البُونْتِ مَلْأَى بالأُسُودِ والنُّمُرِ والأَفْيَالِ . ثم أَقْلَعَتِ السُّفُنُ بَيْنَ تَهْلِيلِ الشَّعْبِ وهِتَافِهِ ، بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ الْبَحَّارَةُ أَطْفَالَهُمْ وزَوْجَاتِهِم وذَوِيهِمْ وَدَاعاً ظَنُّوهُ الأَخِيرَ . وسَارَتِ السُّفُنُ تَتَهَادَى فى النِّيلِ ، ثُمَّ اخْتَرَقَتْ قَنَاةً مُوَصِّلَةً إِلَى البحرِ الأَحمرِ (كَانَتِ القناةُ مَكَانَ تُرْعَةِ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ الحالِيَّةِ) ، وأَخَذَتْ تَمْخُرُ عُبَابَ البحرِ إِلَى نِهَايَتِهِ فى الْجَنُوبِ حَتَّى وصَلَتْ فى الْمُحِيطِ الْهِنْدِىِّ إِلَى شَواطِىءِ بِلَادِ الْبُونْتِ .

طريق البعثة إلى بلاد البونت

ومَرَّتِ الأَشْهُرُ الطويلةُ تَتَوالَى شَهراً بعدَ شَهْرٍ ، والنَّاسُ لا تَدْرِى من أَمْرِ الْبَعْثَةِ شَيْئاً ، حَتَّى وصَلَتِ الأَخْبَارُ إِلَى الْمَلِكَةِ بِأَنَّ السُّفُنَ قد شُوهِدَتْ عَائِدَةً فى البحرِ الأَحْمَرِ ، وشَاعَ الْخَبَرُ ، فَأَخَذَ الناسُ يَذْهَبُونَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى شَاطِىءِ النِّيلِ يَرْقُبُونَ عَوْدَةَ السُّفُنِ ، حَتَّى رَأَوْهَا ذاتَ يَوْمٍ تَسِيرُ مُتَثَاقِلَةً ، مِمَّا

دَلَّ عَلَى كِبَرِ حُمُولَتِهَا ، وأَخِيراً رَسَتْ أَمَامَ طِيبَةَ ، وأَقْبَلَ المشاهِدُونَ يُحَيُّونَ الْبَحَّارَةَ البواسِلَ ، ويَهْتِفونَ لهم ، ويَسْأَلُونَهُمْ : «مَاذَا أَحْضَرْتُمْ لِلإِلهِ آمُونَ مِنْ بِلادِ الْبُونْتِ؟» فَكَانَ الْبَحَّارَةُ يُجِيبُونَ بِقَوْلِهِمْ : «انْتَظِرُوا إِلَى الْغَدِ تَرَوُا الْعَجَائِبَ» .

وفى صَبَاحِ الْغَدِ الباكِرِ ، بَدَأَتِ السُّفُنُ فى تَفْرِيغِ شَحْنَتِهَا ، وسَارَ الْحَمَّالُونَ أَفْوَاجًا يَحْمِلُونَ الْهَدَايَا إِلَى الْمَلِكَةِ حَاتْشِبْسُوتَ ، والشَّعْبُ الْمُصْطَفُّ عَلَى جَانِبَيِ الطَّرِيقِ يَرَى أَعْجَبَ العجائِبِ حَقًّا ، مِمَّا لَمْ تَرَهُ مِصْرُ قَبْلَ ذَلِكَ الْحِينِ ، فَمَرَّ الْحَمَّالُونَ يَحْمِلُونَ أَنْوَاعَ الأَشْجَارِ الْخَضْراءِ الْغَرِيبَةِ ، مُزْرُوعَةً كُلٌّ مِنْهَا فِى آنِيَةٍ من الْخَشَبِ ، ثُمَّ أَنْيَابَ الفيلِ تَسْطَعُ بِبَيَاضِهَا النَّاصِعِ تَحْتَ وَهَجِ الشَّمسِ ، وخَشَبَ الأَبَنُوسِ الأَسْوَدِ الْقَاتِمِ . وجَاءَ غَيْرُهُمْ يَحْمِلُونَ قُضْبَانًا كَبِيرَةً من الذَّهَبِ الخالِصِ ، وأَكْيَاساً مَمْلُوءَةً بِتِبْرِ الذَّهَبِ ، وغَيْرَهَا مَحْشُوَّةً بِأَنْوَاعِ التَّوَابِلِ والطِّيبِ ، وعُلَباً بِهَا أَبْهَرُ الْمُجَوْهَرَاتِ وأَثْمَنُهَا ، ثُمَّ مَرَّ حَمَّالُونَ آخَرُونَ يَقُودُونَ مُخْتَلِفَ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ كَالنَّمِرِ والزَّرَافَةِ والْقِرَدَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّكْلِ . وَوَقَفَ الناسُ مَدْهُوشِينَ ، والأَطْفَالُ فَرِحِينَ مُهَلِّلِينَ ، وكَأَنَّ الْجَمِيعَ فِى حُلْمٍ لَذِيذٍ ، حَتَّى وَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكَةِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَبَابِنَةُ السُّفُنِ ، وأَبْلَغُوهَا تَحِيَّاتِ مَلِكِ الْبُونْتِ ، ثُمَّ قَدَّمُوا إِلَيْهَا الْهَدَايَا .

وتَحَقَّقَتْ أُمْنِيَّةُ حَاتْشِبْسُوتَ ، فَأَقَامَتْ لِلإِلهِ آمُونَ حَدِيقَةً نَادِرَةً ، لاَ مَثِيلَ لَهَا فِى وَادِى النِّيلِ كُلِّهِ ، وشَيَّدَتْ فِى وَسَطِهَا مَعْبَداً جَدِيداً لَهُ ، زَيَّنَتْ جُدْرَانَهُ بِنُقُوشٍ وصُوَرٍ مُلَوَّنَةٍ بديعةٍ ، تُبَيِّنُ أَدْوَارَ حُكْمِهَا وبَعْثَتَهَا إِلَى بِلادِ الْبُونْتِ ، ومَا جَلَبَتْهُ السُّفُنُ من هَدَايَا وتُحَفٍ .

وسار الحمالون يحملون الهدايا

ومَاتَتْ حَاتْشِبْسُوتُ بَعْدَ أَنْ حَكَمَتْ مِصْرَ اثْنَتَيْنِ وعِشْرِينَ سَنَةً كُلُّهَا مَجْدٌ وفَخَارٌ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَلِكَةٍ حَكَمَتِ الْبِلادَ ، كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ مَنِ اتَّصَلَ بِبِلادِ الْحَبَشَةِ والصُّومَالِ . وأَنْتَ إِذَا زُرْتَ الأَقْصُرَ ، لَوَجَدْتَ (فِى الكَرْنَكِ) مَعْبَدَ آمُونَ ، الَّذِى شَيَّدَتْهُ حَاتْشِبْسُوت ، ولَرَأَيْتَ فِى الدَّيْرِ الْبَحَرِىِّ هذه الْقِصَّةَ مَنْشُورَةً عَلَى جُدْرَانِهِ ، مُزَيَّنَةً بِصُوَرٍ فِى غَايَةِ الإِبْدَاعِ .